

أسباب انتشار المذهب المالكي في المغرب العربي

الظاهر عمر الطاهر نابي
إمام خطيب بمسجد السلام - البليدة

- لماذا انتشرت هذه الآراء دون غيرها؟ وكيف استمرت؟
- وما العوائق التي واجهتها؟ وكيف تعاملت مع هذه العوائق؟
- ثم ما هو الأثر الذي أدته هذه الآراء في الحياة المغاربية؟

وتجيء هذه المقالة كمحاولة للإجابة على سؤال واحد فقط - هو الأول - ومقتصرًا على الفقه دون غيره؛ ولا تعدو أن تكون منبها إلى قيمة الموضوع ومفتاحا لدراسات معمقة تجلي حقيقة الموضوع بوضوح أكثر وطرح أدق بهدف:

- 1- المساهمة في خدمة المذهب المالكي: بإبراز عوامل نشوئه ونموه واستمراره.

مقالة ملخصة تبحث عن سبب انتشار مذهب عالم المدينة في المغرب دون غيره من سائر المذاهب.

تمهيد:

إن المتأمل في مسيرة الفقه الإسلامي لا يلبث أن يشد انتباهه ظاهرة فريدة ومتميزة تخص المغرب الإسلامي والتي تكمن في أن الفرق الكلامية - عدا المدرسة السنية - والمذاهب الفقهية - عدا المذهب المالكي - ما لبثت أن تقلص نفوذها واضمحل وجودها بعد انتشارها بزمن ليس بالطويل.

وهذه الظاهرة التي يتميز بها المغرب الإسلامي عن سائر الأقطار الإسلامية الأخرى لتدعونا إلى التساؤل:

2- المساهمة في عملية فهم الواقع المغربي من أجل:
• إدراك الوظيفة التاريخية للمغرب الإسلامي.

• إدراك مدى مساهمة المذهب المالكي في تعميق وتأصيلها هذه الوظيفة والغرض العملي من كل هذا هو:

• فهم أثر المذهب المالكي في تشكيل الواقع المغربي المعاصر لا يتجاهل في أي عملية تغييرية أو تنموية.

• تطوير وتحسينه الأداء التغييري للحركات الاجتماعية في الغرب الإسلامي من خلال الحفاظ على هذا المكسب الثمين الذي حافظ على وحدة المجتمع وهويته الثقافية ومن خلال التركيز على استغلاله بشكل يدعم عملية التغيير ويساندها، والله المستعان.

مدخل تاريخي:

ما لبث أوائل المغاربة الذين أسلموا أن أحسوا بواجبهم تجاه فهم هذا الدين وتعلم أحكامه ثم الالتزام بتعاليمه وأوامره ونشره في "المناطق الخام" التي

لم تعرف بعد هذا الدين أو لم تتقبله جيدا، لذا تراهم يرحلون من أجل تعلم هذا الدين إلى الكوفة والبصرة ودمشق ومصر فضلا عن مكة والمدينة؛ ولم يكتفوا بالأخذ عن الصحابة الذين دخلوا إفريقيا⁽¹⁾ أو التابعين الذين استقروا بها⁽²⁾ أو الذين زاروها ثم رجعوا إلى إقاماتهم⁽³⁾ دون أن ننسى الوفد الذي أرسلته السلطة السياسية الحاكمة ف دمشق في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز⁽⁴⁾؛ وبدأ بهذا انتشار العلم بالمغرب الإسلامي بالتعلم في الوطن أولا، ثم بالرحلة إلى الحواضر العلمية للاستزادة ثانيا.

وبعد عودة الذين رحلوا لطلب العلم إلى بلادهم بدأت فكرة انتشار مذاهب فقهية معينة في بلاد المغرب خاصة مذهب أبي حنيفة النعمان ومذهب مالك بن أنس وبدرجة أقل مذهب الأوزاعي، ثم كثر أتباع الإمام مالك وانتشروا في البلاد انتشارا واسعا حتى استحوز هذا المذهب على الساحة الفقهية المغربية حتى صار لا يفتى إلا به ولا يولى إلا من انتسب إليه، وبذلك تشكل واقع متميز

أولاً: العامل النفسي / الاجتماعي :

ويتلخص هذا العامل في الأسباب التالية:

1- تأثير الإمام مالك بن أنس على المغاربة:

لقد كان لشخصية مالك بن أنس - صاحب المذهب - المتميزة أبلغ تأثير في تحبيب مذهبه إلى الناس عامة والمغاربة خاصة؛ ويتضح ذلك لمن يطالع ترجمته وذلك من خلال أخلاقه العالية واهتمامه بالطلبة المغاربة خاصة.

فأما أخلاقه: فكان المعروف عنه الكرم ومحبة الناس والتواضع والحرص على الخير والزهد في أيدي الناس عامة والولاة خاصة... إضافة إلى تهيمه الشديد للفتوى⁽⁸⁾ وتحريره الشديد لما ينقل ويرويه من حديث النبي ﷺ⁽⁹⁾ وإقباله على ما ينفع وتركه خلاف هذا⁽¹⁰⁾ مع ما عرف عنه من توفير حديث رسول الله ﷺ⁽¹¹⁾، وكل هذا وغيره مكنّ حبه من التوطد في قلوب الناس فكانوا لا يخرجون عن حكمه ولا يعقبون على

تمكن من القضاء على المذاهب المنافسة - أو تحجيمها على الأقل - حتى أنّ الرحالة المغاربة كانوا يتفاجئون من تعدد المذاهب التي يرونها في رحلاتهم إلى المشرق إضافة إلى بعض التصريحات الدالة على هذه السيادة مثل ما قال ابن التبان: "لون نشرت بين اثنين ما خالفت مذهب مالك"⁽⁵⁾، أو مثلما تعبر عنه بعض الأمثال الشعبية الشائعة: "سيدي خليل والألفية، الحكمة ثمة مخفية"⁽⁶⁾ دون أن ننسى تأثير القوانين الحالية بالمذهب المالكي خاصة في ما يتعلق بشؤون الأسرة⁽⁷⁾.

فهذه الأدلة وغيرها تؤكد سيادة المذهب المالكي على الربوع المغربية، وإذا ما حاولنا تعلل ذلك بالنظر في أسباب هذا الواقع خلصنا إلى ثلاثة عوامل أساسية هي:

- 1- العامل النفسي الاجتماعي.
- 2- العامل الجغرافي.
- 3- العامل السياسي.

رأيه ولا "يفتون ومالك في المدينة".

وأما عنايته بالطلبة المغاربة : فقد كان شديد العناية بالطلبة عموماً حتى قال للمهدي لما طلب السماع منه: "هذا شيء يطول عليك، ولكن أكتبها لك وأصححها وأبعثها إليك" (12)، ولما جاءه كتاب ابن غانم يوصيه بعبد الله بن أبي حسان اليحصبي أكرمه، حتى قال عبد الله "فلم أزل عنده مكرماً" (13).

وأما الطلبة المغاربة فلم يكن يزدرهم - كما فعل زُفَرُّ بن الهذيل تلميذ أبي حنيفة - الذي كان يزدرى عبد الله بن قُروخ للمغربية (14)، بل إن الإمام مالكا رَحِمَهُ اللهُ كان يثني عليهم ويقول: "إنَّ أهل الأمن والذكاء والعقول من أهل الأمصار ثلاثة: المدينة، ثم الكوفة، ثم القيروان" (15)، فكان لسلوكه هذا الأثر الحسن في نفوس المغاربة.

ومما ساعد على نمو هذه العلاقة تفسير العلماء لحديث النبي ﷺ «يوشك

أن يضرب الناس أكباد يطلبون العلم فلا يجدون أحداً أعلم من عالم المدينة» فقد قال العلماء إنَّ مالكا بن أنس هو المقصود بالحديث (16)، وكان هذا التفسير بمثابة الحجة الشرعية الدالة على مبلغ علم الإمام مالكا، وهذه الميزة لا تتوفر لأي مذهب من المذاهب الأخرى.

2- تأثير التلاميذ والأتباع:

ويتضح تأثيرهم من الناحيتين التاليتين:

2-1 - التأثير الكمي : لقد رزق الله مالكا بن أنس البركة في التلاميذ والأتباع ما لم يرزقه إماماً من الأئمة الآخرين؛ فلقد عد تلاميذه الذين أخذوا عنه العلم بأزيد من ألف وثلاثمائة (1300) تلميذ (17)، عدد السيوطي منهم أزيد من تسعمائة (900) رجل بأسمائهم وألقابهم وأنسابهم (18) وبلغ بهم الألف (1000).

وطبيعي أن ينشر هؤلاء التلاميذ علم

يهاب السلطان في حق يقوله" (21).

3- تشابه بيئي الحجاز والمغرب من الناحية الاجتماعية:

وهو ما عبر عنه ابن خلدون بمناسبة البداوة بين أهل الحجاز وأهل المغرب حيث قال: "... وأيضاً فالبداوة التي كانت غالبية على أهل المغرب والأندلس، ولم يكونوا يعانون الحضارة التي لأهل العراق فكانوا إلى الحجاز أميل بمناسبة البداوة" (22)، ورغم كل ما أثاره هذا القول من آثار وزوابع كلامية (23)، فإن جانباً منه صحيح يكمن في التشابه بين البيئتين من حيث إنّ تأثير الحضارات المجاورة الوافدة لم يكن بشكل فعال، فإذا كان العربي لا يرضى أن يتشبه برومي أو مجوسي ولا يقبله أن يكون حاكماً عليه ومصدراً لقيمه له، فكذلك البربري لم يرض يوماً بوجود البيزنطيين ولا الوندال وغيرهم، فالبيئتان صنعتا نفسيهما بأنفسهما دون تأثير كبير من بيئات أجنبية على عكس بيئات

أستاذهم ويدافعوا عن علمهم، وهذا ما حدث بالضبط في المغرب حين نشر أسد بن الفرات وعبد الله بن فروخ ويحيى بن يحيى الليثي والبهلول بن راشد وزيد بن عبد الرحمن وعلي بن زياد ومن بعدهم.

2-2 - التأثير النوعي: وأقصد بذلك ما تمتع به تلامذته وأتباعه من هبة قوية ومحبة لدى الناس، مكنتهم من كسبهم - خاصة العامة - والتأثير فيهم: فلما أراد محمد بن مقاتل العكي - وكان والياً - ضرب البهلول بن راشد - الفقيه المالكي - رمى الناس أنفسهم عليه حماية له من السياط (19).

وكذلك وقف عبد الله بن غانم ضد إبراهيم بن الأغلب من أجل استرداد أموال الناس التي أخذها الأمير ظلماً (20) وحمدها له الناس واغبطوا به. ومن أمثلة هذا ما جاء في ترجمة العالم سحنون قالوا: " اجتمعت فيه خلال قلماً اجتمعت في غيره؛ الفقه البار، والورع الصادق، والصرامة في الحق، الزهادة في الدنيا، ولم يكن

الحجاز إلا قليلا فقد كانوا يؤمنونها للحج والعمرة فإذا أتموا ذلك عرجوا على المدينة لزيارة قبر النبي ﷺ و يقيمون بها يستمعون أخبارها. وكانت شهرة مالك تملأ المدينة وتتجاوزها إلى غيرها؛ لذلك كان الحجاج يقصدون مجلسه لطلب الفتوى وللتعلم وللتأدب والتبرك أثناء إقامتهم بالمدينة.

وكان لجلوس مالك قرب قبر النبي ﷺ وفي مسجده ﷺ وهو يحدث عنه ويروي عنه فيتمثلونه في مقام عال جداً - وهم أحدث الناس إسلاماً - فيؤثر ذلك على أنفسهم تأثيراً إيجابياً؛ وهذا مما يساعد مذهب مالك على الانتشار بين المغاربة لَمَّا يحملون عنه أطيب الأخبار معطرة بالأجواء التي توحىها قيمة المدينة التاريخية والنفسية.

3- بعد العراق عن طريق رحلة المغاربة إلى الحجاز:

وكان لهذا العامل دور كبير، فالكوفة تبعد آلاف الأميال عن المغرب

إسلامية قريبة كالعراق والشام التي صنعت شخصياتها من ثقافت حضارات وافدة ومجاورة.
ثانياً: العامل الجغرافي.

1- دور قافلة الحج في التلقي على مذهب مالك:

يعتبر الحج مؤتمراً سنوياً يجتمع فيه المسلمون من كل الأقطار لأداء فرض الله الذي افترضه عليهم، ثم يرجعون إلى المدينة لزيارة قبر النبي ﷺ والصلاة في مسجده.

وكما كان يصاحب قافلة الحج جمع من اطلبة العلم وفي المدينة لا يجدون أشهر من عالمها: الامام مالك ليأخذوا العلم عنه: فيلازمونه ويتعلمون منه ثم يعودون لبلادهم ينشرون مآثره وعلومه، فيمهدون الناس لحبه وتقبل آرائه الفقهية، خاصة وأنه كان في المدينة وهي مهبط الوحي ومحط أنظار المسلمين.

2- نشوء المذهب بالديار المقدسة:

كانت رحلة المغاربة لا تعدو أرض

وقد كان منهم أيام الأكاسرة مثل ماني وديسان ومزدك وغيرهم، وليست طينة الحجاز هذه الطيبة ولا أذهان الحجاز هذه الأذهان⁽²⁴⁾.

ثالثاً: العامل السياسي:

وأعني به التزام السلطات السياسية الأمراء، الخلفاء، القضاة بأحكام المذهب المالكي، وكان هذا العامل نتيجة للجهود التي أثمرتها العوامل السابقة ولولاها لما كان لهذا العامل كبير أثر في التزام المجتمع المغاربي بالمذهب المالكي، والدليل عليه ما صنعه الفاطميون الذين حاولوا فرض مذهبهم على الناس فحاربوه وناصبوه العداء، وفي هذا السياق يمكن أن نفهم كلمة ابن حزم المشهورة "مذهبان انتشرا في يده أمرهما بالرياسة والسلطان: الحنفي بالمشرق والمالكي بالمغرب"⁽²⁵⁾.

وسنركز في حديثنا على القضاة باعتبارهم ألصق السلطات بالناس بالمقارنة مع الأمراء والخلفاء، ونلاحظ تأثيرهم على الناس من خلال جانبين أساسيين:

وكذلك البصرة؛ وإنما كان المغاربة يرحلون إلى الحج إما عن طريق سيناء ويتعطفون منها عن طريق البر، وإما عن طريق البحر الأحمر، ولم يكن العراق في طريقهم حتى يأخذوا عن علمائه والذين رحلوا إليه اثنان فقط: عبد الله بن فروخ وأسد بن الفرات.

ثم إن العراق له ميزة أخرى جعلت المغاربة يعزفون عنه إضافة إلى بعده وهو أنه كان موطن الفرق المختلفة والنحل المتباينة ففي ربوعه كان الشيعة - معتدلوهم وغلاتهم - وفيه كانت المعتزلة والجهمية والقدرية، والمرجئة وغيرهم منذ القدم حتى قال ابن أبي الحديد: "ومما يقدح لي في الفرق بين هؤلاء القوم (الروافض) وبين الذين عاصروا رسول الله ﷺ أن هؤلاء القوم من العراق وساكني الكوفة؛ وطينة العراق ما زالت تنبت أرباب الأهواء وأصحاب النحل العجيبة والمذاهب البديعة، وأهل هذا الإقليم أهل بصر وتدقيق ونظر وبحث عن الآراء والعقائد وشبه معترضة المذاهب،

1- صلاية القضاة في تنفيذ أحكام الشرع:

إن تولي المالكية خطة القضاء وصلايتهم في تنفيذ أحكام الشرع - خاصة إذا تعلق الأمر بالأمراء والخلفاء - كان له أثر كبير على انتشار المذهب المالكي من حيث قبول الناس له ومن حيث قسر الناس على التعامل وفق أحكامه.

ونمثل لذلك بما قاله سحنون للأمير محمد بن الأغلب لما ولاه القضاء مكرها: "أبدأ بأهل بيتك وقرابتك وأعوانك، فإن قيلهم ظلمات الناس وأموال لهم منذ زمان طويل إذ لم يجتوى عليهم من كان قبلي" (26) ولذا لما قيل لسحنون هذا منصور دخل من تونس بالجزائر فركب وانتزع ما بيده فدخل منصور على ابن الأغلب وقد شق ثوبه وذكر ما جرى له مع القاضي وكان أن غضب الأمير وأرسل فتاه إليه قائلاً: "أردد السبي على منصور" وإلا فأتني برأسه، وبعد قصة طريفة قال الأمير لمنصور: "سلني عما

شئت عن حوائجك وأعرض عن خبر سحنون" (27).

وفي قصة أخرى دخل ابن طالب مع الأمير جنانا قد طاب ثمره فناولته ثمرا منه، ثم قال ابن طالب: "أيها الأمير يجب لله شكر أن بلغك غرسه، ثم أكلت ثمره" فقال الأمير: "ما هذا الشكر؟"، قال "أن تصلي ركعتين"، فأمر الأمير بحصيرين فبسطا ثم صليا، ثم قال ابن طالب: "وبقي آخر" قال وما هو؟ قال: "تبعث بصدقة إلى أهل الدمنة فإنهم أهل زمانة وضعف، ففعل، ثم قال: "وبقي آخر" قال: "وما هو؟ قال: "تعزل من عمالك من كان جائرا، وتجعل مكانه من يعدل في الرعية"، فأمر الأمير بذلك. (28)

2- أوصاف القضاة الحسنة:

فقد قيل في محمد بن سحنون: كان ابن سحنون إمام عصره في مذهب أهل المدينة بالمغرب، جامعاً لخلال قلماً اجتمعت في غيره من الفقه البارع والعلم بالأثر، والجدل والحديث، والذب عن مذهب أهل الحجاز (29)، وقيل في يحيى

إلى إثراء كبير ومععمق وآمل أن يتسع لنا صدر القارئ لتفهم وبحثه الموضوع، ثم فتح باب للنقاش من أجل إقامة حوار بين النخب المثقفة عسى أن نخطو خطوة صحيحة من أجل فهم مجتمعنا فهما سليما.

بن معمر الألهاني الذي عُدد من خير القضاة في قصد بصيرته وحسن هديه وصلابة قناته، لا يميل بلومة لائم⁽³⁰⁾ وقيل في ابن طالب إنه كان عدلا في قضائه، ورعا في أحكامه، كثير المشاورة لأهل العلم من أهل مذهبه وغيرهم.

انتهى بحمد الله وتوفيقه

الخاتمة

وفي ختام هذا البحث ينبغي أن نسجل أن هذا الموضوع لا يزال بحاجة

الهوامش

- (1) - الصحابة الذين دخلوا إفريقيا تسعة وعشرون منهم عبد الله بن عباس، وابن الزبير، وابن عمرو بن العاص، وأبو ذر الغفاري، وعقبة بن نافع، وزهير بن قيس الباوي، والمقداد بن عمرو، وغيرهم (راجع: المالكي، رياض النفوس 1/60-98).
- (2) - التابعون الذين استقروا بإفريقيا هم: علي بن رباح اللخمي، وخنش بن عبد الله الصنعاني، وأبو سعيد المقبري، وأبو منصور - مولى سعد بن أبي وقاص - وأبو عائشة - مولى ابن عباس -، ومسلم بن يسار وغيرهم (المرجع السابق: 1/119-140).
- (3) - التابعون الذين زاروا إفريقيا ثم رجعوا إلى إقامتهم: عاصم بن الخطاب وعكرمة - مولى ابن عباس - ويحيى بن سعيد.
- (4) - المرجع السابق: 1/99-118.
- (5) - المازري، المعلم فوائد مسلم: 1/19.
- (6) - دور المذهب المالكي في بناء الشخصية العربية الإسلامية لسكان إفريقيا الشمالية: 3/43.

- (7)- راجع " شبيها حمداني ماء العين" تأثر القوانين المغربية بالمذهب المالكي / قوانين الأسرة الجزائرية والمغربية والتونسية.
- (8)- القاضي عياض: ترتيب المدارك/1-146144.
- (9)- المرجع السابق: 150/1.
- (10)- المرجع السابق: 164/1.
- (11)- المرجع السابق: 162/1.
- (12)- رياض النفوس: 385/1-386.
- (13)- المرجع السابق: 451/1.
- (14)- المرجع السابق: 386/1.
- (15)- ترتيب المدارك/1-83، 303 الترمذي : السنن :4/153، الحاكم : المستدرک :1/91.
- (16)- السيوطي : تزيين الممالك: /18.
- (17)- المرجع السابق: /18-41.
- (18)- رياض النفوس: 313/1-313.
- (19)- المرجع السابق: 1-223 222.
- (20)- المرجع السابق: 346-345/1.
- (21)- ابن خلدون المقدمة: /499.
- (22)- محمد أبو زهرة مالك: /344.
- (23)- محمد أبو زهرة أبو حنيفة: /75.
- (24)- مالك: /367.
- (25)- ترتيب المدارك: 597/1.
- (26)- المرجع السابق: 606/1.
- (27)- رياض النفوس: 477/1.
- (28)- ترتيب المدارك: 105/1.
- (29)- المرجع السابق